مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830

المجلد 5 / العـدد 2 (2021)، ص 101– 116

معاني الحروف وأثرها في تأويل الخطاب القرآني، قراءة في تفسير جامع البيان لابن جرير الطبري

The role of Prepositions and conjunctions in interpreting the Quranic discourse

د.شمون أرزقي* chemoune arezki

جامعة عبد الرحمن ميرة بجاية

arezki.chemoune@univ-bejaia.dz

تاريخ الاستلام: 24 /2021/06 تاريخ القبول: 23 /2021/09

ملخص: نسعى من خلال هذه الدراسة إلى الكشف عن استعمالات بعض حروف المعاني في القرآن الكريم، وأثرها في دلالة النص والكشف عمّا يتضمنه من مقاصد، من خلال قراءة في تفسير جامع البيان لابن جرير الطبري، وقد وقع اختيارنا على هذا التفسير لاعتبارات عدة أهمها أنه من أقدم التفاسير التي كتب لها أن تصل إلينا، ولم تعبث بها رياح الضياع، كما إنه تفسير نحوي بامتياز، جامع لآراء كثير من النحاة، من المفيد أن نضع بعضها في متناول قرّائنا حتى يقفوا على جانب من أسرار الأسلوب القرآني

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، التفسير، الحروف، الدلالات، الخطاب

Abstract: Our intention in this paper is to reveal the role of both Prepositions and conjunctions in interpreting quranic texts to extract the provisions of Shareaa.

Our focus is on Ettabari's book of interpretation which is named Djamia El Bayane, becuse it is the oldest onein the field of Quranic interpretation, and because it relies upon Grammar in interpreting Quran.

Key words : The Holy Quran, interpretation, Prepositions and conjunctions, Meaning, Discourse.

* - المؤلف المرسل: د.شمون أرزقي، arezki.chemoune@univ-bejaia.dz

1. مقدمة:

إن القرآن الكريم هو حجة الله الخالدة التي لا ريب فيها، نزّلها سبحانه على خاتم الأنبياء والمرسلين، هداية ورحمة للعالمين، متضمّنة شريعة تامة ومنهاجا كاملا لحياة السعادة في الدارين، قال تعالى:{ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ، ويُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الْصَّالِحَاتِ أَنّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا} (الإسراء:9).

وممّا جاء في كتاب الحق، أنه منزّل ليبيّن للناس معاني الوحي ومقاصده قال تعالى:{ هُو الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ويُزَكِّيهِم ويُعَلِّمَهُمْ الكِتَاب والحِكْمَةَ} (الجمعة: 2).

ولم يختلف علماء الإسلام في ما بينهم حول ضرورة العلم باللغة وآدابها وعلومها لتفسير القرآن الكريم، ولا شك في أن النحو في مقدمة هذه العلوم، إذ يعتبر البديل الأول للسليقة العربية، ووسيلة الوصول إلى جل العلوم الأخرى[1] ، وقد نقل السيوطي عن أبي طالب الطبري أنه قال: "وتمام هذه الشرائط ــ شرائط التفسيرــ أن يكون ممتلئا من عدة الإعراب، لا يلتبس عليه اختلاف وجود الكلام، فإنه إذا خرج بالبيان عن وضع اللسان إما حقيقة أو مجازا فتأويله تعطيله"[2] .

ولعلّ من أبرز التفاسير المشهورة بالتعويل على الدرس النحوي كتاب "جامع البيان عن تأويل آي القرآن" للإمام محمد بن جرير الطبري (ت 310 هـ)، فهو تفسير فريد في بابه، ما من مفسّر إلاّ ويعود إليه ليغترف منه، لأنّ مؤلّفه من أعمدة المفسرين، ومن أعلام النحو العربي.

ونظرا لأهمية هذا الكتاب في حقل التفسير، اخترناه ليكون موضوعا لهذا المقال، استجابة منّا لدوافع أهمها اهتمامنا الكبير بالقرآن الكريم أسلوبا ومضمونا، مع حبّنا لعلم النحو الذي يعدّ من أسمى علوم اللغة.

وقد سعينا من خلال هذا المقال إلى الإجابة عن جملة من الأسئلة أهمها ما يلي:

- ما معنى التفسير؟ وماهي أنواعه؟
- ما هي العلاقة بين التفسير والتأويل؟
- ما حجم جهود الإمام الطبري النحوية في تفسيره؟

وحتى يتسنى لنا أن نجيب عن هذه التساؤلات المطروحة، كان تركيزنا على ثلاثة محاور تمثل بشأن موضوعنا هذا، عناوين كبرى للمقال هي التالية:

ــ مفهوم كلّ من التفسير والتأويل والعلاقة بينهما.

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد 5 / العـدد 2 (2021)، ص 101– 116

ــ بيان علاقة النحو بالدلالة، من خلال علاقته بالنَظم في القرآن الكريم وإعجازه، وكذا أهميته في الكشف عن مقاصده، وموقع هذا كله من "جامع البيان".

ـ الجانب التطبيقي للمقال، متمثّلا في الوقوف عند جملة من آراء الإمام الطبري النحوية التي عرض لها في تفسيره، والتعليق عليها، ولاستحالة الوقوف عند آراء الإمام النحوية كلها، ارتأينا الاقتصار على دلالة بعض الحروف، وقد فرضت علينا طبيعة هذا الموضوع أن نعتمد على المنهج الوصفي التحليلي.

ولإنجاز هذا المقال، اعتمدنا على جملة من الكتب المتعلقة بالموضوع، إلى جانب بعض التفاسير كالكشاف للزمخشري، والمحرر الوجيز لابن عاشور، مع جامع البيان للإمام الطبري.

أوّلا، مفهوم التفسير والتأويل:

1 . التفسير:

لغة: يدور استعماله حول معنى البيان والكشف، سواء أكان هذا الكشف لغموض لفظ أم لغير ذلك، يقال فسّرت اللفظ فسرا من باب ضرب ونصر وفسرته تفسيرا شدد للكثرة إذا كشفت مغلقة"[3] ، ومنه قوله تعالى:{ ولا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إلاّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وأَحْسَنَ تَفْسِيرًا} (الفرقان 33).

أمّا مفهومه الاصطلاحي، فيدور حول اعتباره علما "يُبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"[4] .

وممن عرّفوا التفسير الإمام الزركشي(ت794هـ) إذ يقول: "هو علم يُعرف به فهم كتاب الله المنزّل على نبيّه محمد صلى الله عليه وسلم، وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه"[5] ، كما عرّفه في موضع آخر بقوله: "هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها، ثم ترتيب مكّيِّها ومدنيّها وعامّها، ومطلقِها ومقيّدها، ومجملها ومفسرها"[6].

أنواعه: يمكن الإشارة إلى نوعين من التفسير وهما كما يلي:

أ ـ التفسير بالمأثور: هو ما جاء في القرآن الكريم نفسه من بيان وتفصيل[7] ، يُطلق عليه التفسير بالمنقول أو التفسير بالرواية، يعتمد فيه المفسّر على نقل معنى الآية من آية أخرى أي تفسير القرآن بالقرآن[8] وما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أيضا من الأحاديث الشريفة لقوله تعالى: { ومَن يُطِعِ

اللهَ وَالرَسُولَ فَأولَئِكَ مَعَ الذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النبيّينَ وَالصدِيقِينَ والشهَدَاءِ والصالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا}(النساء 69)، إلى جانب ما صحّ نقله عن الصحابة رضوان الله عليهم و كذا أقوال التابعين.

ب ـ التفسير بالرأي:

يقصد بالتفسير بالرأي[9] ، التفسير بالمعقول، بمعنى اجتهاد المفسّر على قدر الإمكان، لا على مجرّد النقل، فيقوم بتفسير القرآن الكريم بالاجتهاد، بعد أن يدرك مدلولات ألفاظ اللغة العربية، وكلام العرب وشعرهم، وكذا بعد اطلاعه على أسباب النزول، ومعرفة الناسخ والمنسوخ من آيات كتاب الله المقدس[10] ، قال تعالى:{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ولِيَتَذَكَّرَ أَولُو الأَلْبَابِ}[11] ، ونص هذه الآية الكريمة بيان مدى جواز الاجتهاد في التفسير، ولو لم يكن الأمر كذلك لكان عمل الصحابة وقوعا في معصية الله تعالى.

2. التأويل:

لقد ظل التأويل مسايرا للدين الإسلامي بعد نزول القرآن الكريم، لجأ إليه العرب بحسب تصوراتهم، فشهدت البيئة العربية تعددا في التأويل، ما أدى إلى ظهور مفاهيم وآراء مختلفة تبيّن حدوده وتضبطه.

أمّا مفهومه لغة، فهو مصدر على وزن (تفعيل) من أوّل يؤوّل تأويلا، يشير ابن منظور بشأنه إلى ثلاثة معانٍ هي الرجوع، الارتداد والوعل، يقول: « الأوّل الرجوع، آل الشيء يؤول ومالا رجع، وأوّل إليه الشيء: رجَعَه وألْت عن الشيء: ارتدت، يقال طبخت النبيذ حتى آل إلى الثلث أو الربع أي رجع والأيل من الوحش: الوعل »[12] .

أما معناه الاصطلاحي فقد اختلفت حوله آراء العلماء، ومن أهمّ ما قيل فيه ما يذكره الزجاج من أنّه كلمة تستعمل غالبا لإبراز الوجه الذي يؤول إليه المعنى، بإبدال جهد زائد عمّا يبذل في التفسير العادي [13] ويقول الجرجاني في كتابه "التعريفات": إنّه " في الأصل الترجيح، وفي الشرع: صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى يحتمله إذا كان المحتمل الذي يراه موافقا بالكتاب والسنة، ومن هذا الكلام، يتبيّن أنّ التأويل يتجاوز مفهوم التفسير، إذ يدرس ظاهرة لغوية تتحمل أوجهًا تفسيرية مختلفة، مستعينا بحدود خمسة تسمى حدود التأويل أو مستوياته وهي: 1/ الترجيح إلى الأصل، 2/ تجاوز المعنى الظاهر، 3/ الدخول إلى المعنى الباطن، 4/ تفجير النص بالدلالات، 5/ الممارسة التأويلية[14].

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد 5 / العـدد 2 (2021)، ص 101– 116

بين التفسير والتأويل:

من خلال ما ذكره العلماء في مصطلحي التفسير والتأويل، يتبين تقاربهما بوضوح، يقول ابن فارس: « مرجعها إلى ثلاثة وهي المعنى والتفسير والتأويل، وهي وإن اختلفت فإنّ المقاصد بها متقاربة»[15] إذ يعمل كل منهما على فهم المعنى وإيصاله إلى المتلقّي، حتى عدّهما بعضهم مترادفين وبمعنى واحد[16] ، كلاهما يتعديان النظرة السطحية إلى النص، للتغلغل في أعماقه والتدقيق في المحتوى الوارد.

ثانيا، النحو والدلالة من خلال الإعجاز القرآني:

لقد اهتم النحو منذ نشأته الأولى بالمعنى، يستشهد به وبأثره في التقعيد، يمد الجملة بمعناها الأساسي الذي يكفل لها الصحة والسلامة، ويحدد عناصر معناها ويكشف تركيبها، لأن الجملة هي الغاية الأولى لكل نظام نحوي [17].

1/ مفهوم النحو:

النحو في مفهومه اللغوي هو القصد والجهة، يقال نحوت نحو فلان أي قصدت جهته، يقول الجوهري:« النحو: القصد والطريق ... ونَحوتُ بصري إليه، أي صرفت، وأنحيت بصري عنه، أي عدلته» [18]، ويذهب الأشموني إلى أن لفظ النحو« مصدر أُريد به اسم المفعول أي النحو كالخلق بمعنى المخلوق، وخصته غلبة الاستعمال بهذا العلم وإن كان كل علم منحوًا أي مقصودًا، كما خصت الفقه بعلم الأحكام الشرعية الفرعية وإن كان كل علم فقهًا» [19]، أما مفهومه الاصطلاحي، فقد ذُكرت في شأنه أقوال، منها تعريف أبي علي الفارسي الذي يرى أن النحو «علم بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، وهو ينقسم إلى قسمين أحدهما تغيّر يلحق أواخر الكلام، والآخر تغيّر يلحق ذوات الكلم وأنفسها» [20] .

أمّا الجرجاني فيركّز في تعريفه للنحو على وظيفته وأهميتها إذ يقول: « النحو علم بقوانين يعرف بها أحوال التراكيب العربية من الإعراب والبناء وغيرها، وقيل: النحو علم يعرف به أحوال الكلم من حيث الإعلال، وقيل: علم بأصول ما يُعرف بها صحيح الكلم وفاسده» [21].

ويلحّ صاحب دلائل الإعجاز بكل قواه على استحالة وصف الكلام بصحة أو فساد إلاّ بالرجوع إلى معاني النحو وأحكامه، يقول: "واعلم أنّ ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم

النحو، وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فعلا فلا تزيغ عنها وتحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل منها" [22].

وتكمن دلالة النحو في تفسير القرآن الكريم في ما ألّفه النحويون من كتب المعاني وكتب الإعراب التي من خلالها يظهر لنا أثر علم النحو وأهميته في التفسير القرآني، ومن هذه المؤلفات ما سمي بكتب المعاني التي تشبه التفاسير في موضوعها معتمدة على إظهار وجوه الإعراب في الخطاب القرآني، ولعل من أشهر هذه الكتب مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر بن المثنى(ت 209 هـ)، معاني القرآن للفراء (ت 207 هـ)[23] ، وهو كتاب فيه تفسير الآيات معتمدا على التحليل النحوي والقياس، ذاكرا للقراءات، مستشهدا بكلام العرب. ولعلّ من أهم ما تمّ تأليفه من الكتب القائمة على صلة النحو بالدلالة، تلك المؤلفات التي تسمى بكتب معاني القرآن وإعرابه، ومنها كتاب الزجاج (ت: 311) الذي يقول في وصفه: «هذا الكتاب مختصر في إعراب القرآن ومعانيه»[24].

فمن كل هذا الذي سبق ذكره، يتبين أن الوصف النحوي ليس خاليا من الدلالة، وأن العلاقة التي تصفها القواعد النحوية مستمدة من أمرين: أحدهما لغوي يحكمه وضع الكلمات بصيغة معينة في كتل صوتية خاصة، والآخر عقلي يربط كل هيئة تركيبية بدلالة وضعية معينة، وكلاهما متعاونان بطريقة متداخلة، وإذا أمعنا النظر في الأمر نجد أن الجانب اللّغوي نفسه للعلاقة الموصوفة في القواعد النحوية عقلي[25] .

وكان سيبويه من أهم النحاة الذين أدركوا هذا الوصف النحوي، فعملوا على أساس هذه العلاقة الوثيقة بين النحو والمعنى، حتى قال أتباع مدرسة الكوفة إنّ سيبويه "أعمل كلام العرب على المعاني وخلى عن الألفاظ "بمعنى أنه أولى الجانب الإدراكي رعاية واهتماما على حساب الجانب الصوتي، حيث يهتم بالدلالة والمعنى الداخلي أكثر من الشكل الخارجي[26].

نماذج من دلالة الحروف في جامع البيان:

تتنوع القضايا النحوية المتعلقة بالحرف في تفسير الإمام الطبري، من حذف وزيادة ووضع حرف موضع حرف آخر في ما يلي نماذج مما جاء في تفسير الإمام الطبري:

أولا، دلالة زيادة الحرف: منه قوله سبحانه: { قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ }(الأعراف،12). معنى هذه الآية الكريمة أن الله جلّ ثناؤه خاطب إبليس فقال له ما الشيء الذي منعك من السجود لآدم حيث أمرتك؟ فردّ عليه وقال إنه أفضل من آدم، وآدم مخلوق من طين، وبالتالي جوهر النار أفضل من جوهر الطين[27] .

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد 5 / العـدد 2 (2021)، ص 101– 116

يتعرض الطبري للإشكال الذي أثاره بعض النحويين حول (ألاّ) في قوله تعالى: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} ومن بينها فيشير إلى قول بعض نحويي البصرة إنّ "لا" زائدة، ومعنى ذلك ما منعك أن تسجد[28] .

أمّا نحويو الكوفة فقد زعموا أن سبب دخول "لا" في قوله سبحانه أن في بداية الكلام إنكارا، يعني في قوله: (لم يكن من الساجدين) فربما أعاد العرب في الكلام الذي يتضمن الجهد والإنكار، مثل الاستثاق والتوكيد له[29].

وقال آخر منهم:(ليست "لا" بحشو في هذا الموضع ولا صلة، ولكن "المنع" ههنا "القول" وإنما تأويل الكلام: من قال لك ألا تسجد إذ أمرتك بالسجود =ولكن دخل في الكلام " أن " إذ كان " المنع " بمعنى " القول " لا في لفظة، كما يفعل ذلك في سائر الكلام الذي يضارع القول، وهوله في اللفظ مخالف)[30] .

وقال بعضهم: (لما كانت صفة "المنع" ذلك، فخوطب فهو طلب إبليس بالمنع فقيل له: {ما منعك ألا تسجد} مان معناه مأنه قيل له أي شيء اضطرك إلى أن لا تسجد)[31].

فمن الواضح أن الإمام الطبري حدّد مجموعة من الآراء النحوية المختلفة حول "ألاّ " في قوله تعالى{ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ}، ثم أشار إلى فساد قول من قال "لا" في الكلام حشو لا معنى لها، وقول من رأى أن معنى " المنع " ههنا " القول " فلذلك دخلت "لا" مع "أن" إلا أن معظم المفسرين والنحويين اعتبروا "لا" زائدة للتوكيد، أمثال الزمخشري الذي يرى: (في أن لا تسجد صلة بدليل قوله تعالى:{مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسجُد لِما خلقْت بِيَدِي} [32] ومثلها قوله عز وجل: { لِّئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الكِتَابِ}(الحديد،29).

وأيّده الشعراوي في قوله: (وقوله تعالى:{ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} كلام سليم وواضح، يعني: ما حجزك عن السجود، لكن {مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ} هي التي تحتاج لوقفة، لذلك قال العلماء: إن "لا" هنا زائدة ومن أحسن الأدب منهم قال "لا" صلة)[33] .

وما نلاحظه فيما سلف، هو أن الإمام أبا جعفر فطن لما قد غفل عنه الكثير من المفسرين حيث قدر الآية السابقة، ورأى فيها كلاما محذوفا كفى دليل الظاهر منه.

ومن نماذج زيادة الحروف في الخطاب القرآني قوله تعالى: { لَيْسَ كَمَثلِهِ شَيْءٌ } يقول الإمام الطبري إن في العبارة وجهين، الوجه الأول يكون معناه: ليس هو كشيء، والمثل أدخل في الكلام توكيدا له، أما الوجه الثاني فمعناه ليس مثله شيء، والكاف هنا هي المدخلة في الكلام[34]. ولم يرجح الإمام أحدا من الرأيين، لكونهما يشتركان في معنى واحد، فإدخال "الكاف" على "مثله" أوإدخال " مثل "على" الكاف "كلاهما يفيدان التوكيد.

وقد وافق ابن عاشور الإمام الطبري في الوجه الثاني مما ذهب إليه، إذ جعل "الكاف" هي المتدخلة في الكلام فيقول: (ومعنى { لَيْسَ كَمَثلِهِ شَيْءٌ } ليس مثله شيء، فأقحمت كاف التشبيه، فتعيّن أن" الكاف " مفيدة تأكيدًا لمعنى المثل)[35] .

ثانيا، دلالة حذف الحرف: منها قوله سبحانه: { إِنَّ رَبَّكَ هُو أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وهُو أَعْلَمُ بِالمهْتَدِينْ}(الأنعام، 117)، يشير الإمام الطبري في تفسير هذه الآية الكريمة إلى أن الله جلّ وعلا، نهى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم عن أن يطيع هؤلاء العادلين بين الله والأوثان، حتى لا يضلوه عن سبيل الله تعالى، فالله وحده أعلم بالضال عن دينه والمهتدي من عباده[36].

اختلفت آراء أهل العربية حول موضع "من" من قوله تعالى {من يضّل}، فقال بعض نحويي البصرة: (إن موضعه خفض بنية "الباء" بمعنى أن أصل العبارة هو: إن ربك هو أعلم بمن يضل)[37] (المصدر نفسه). أمّا نحاة الكوفة فاعتبر كثير منهم موضعه رفعًا، وذلك لكونه حاملًا لمعنى" أي" أمّا الرفع له فهو" يضل")[38].

وبعد ما بيّن الإمام الطبري اختلاف الرأيين في المسألة، انتصر لموقف الكوفيين على أنه الأصوب، يقول: (والصواب من القول في ذلك أنّه رفع بِ "يضل" وهو في معنى" أي")[39].

وقد عارض ابن عاشور الإمام الطبري في رأيه هذا، منتصرا لرأي البصريين الذي يقول بالخفض بنية "الباء"، يقول: (و"من" موصولة، وإعرابها نصب بنزع الخافض وهو الباء، كما دلّ عليه وجود الباء في قوله سبحانه: { وهو أعلم بالمهتدين}، لأن أفعل التفضيل لا ينصب بنفسه مفعولا به لضعف شبهه بالفعل، إنما يتعدى إلى المفعول بـ"الباء" أو بـ"اللام" أوب "إلى")[40] ، ومن مواضع حذف الحرف أيضا قوله تعالى: { وإِذْ أَخَذْنَا مِيْثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيْلَ لاَ تَعْبُدُونَ إِلاَ الله وَبِالوَالِدِيْنِ إِحْسَانًا وَذِي القُرْبَى وَاليَتَامَى وَالمسَاكِيْنَ وَقُولُوا لِنَاسِ حُسْنًا وَأَقِيْمُوا الصَلَاة وآتوا الزَّكَاةَ ثُمَ تَوَلَيْتُمْ إِلَا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُوْنَ} (البقرة، 83).

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد 5 / العـدد 2 (2021)، ص 101– 116

يشير ابن جرير في تفسير هذه الآية الكريمة إلى أن الله تعالى يخاطب بني إسرائيل بأن لا يعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا، وذلك بالرأفة والدعاء والحنين عليهما، وصلة الرحم، والعطف على اليتامى ذكورا وإناثًا، وحماية حقوقهم بالقول الحسن والخلق الكريم، كما أمرهم بتأدية الصلاة كاملة، بتمام الركوع والسجود، والتلاوة والخشوع، ودفع الزكاة لمستحقيها بمن فيهم الأقارب واليتامى والمساكين، ثم خاطب فئة من معشر بني إسرائيل الذين عارضوا ولم يسمعوا ولم يطيعوا أوامره تعالى[41] .

وما استرعى انتباه الإمام في هذه الآية الكريمة من قضايا النحو هو الحذف في قوله جل ثناؤه: {لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانًا}، فيرى أن الواو من قوله تعالى: (وبالوالدين إحسانًا) حرف عطف حل محل "أنَ" المحذوفة في (لا تعبدون إلا الله) وتقدير الكلام: وإذْ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلا الله وبالوالدين إحسانًا، فجاء فعل (لا تعبدون) مرفوعا لحذف "أنْ" ثم عطف "بالوالدين" على موضعها[42] .

أما كلمة "الإحسان" فقد وردت منصوبة بفعل مضمر تقديره "أحسن"، حيث لو أظهر المحذوف لقيل: (بأن تحسنوا إلى الوالدين إحسانًا)، غير أنه اكتفى بقوله (وبالوالدين إحسانًا)[43] ، ثم ذهب الإمام الطبري إلى ما زعم به أهل العربية فيما سلف إذْ جعلوا معناه: (وبالوالدين فأحسنوا إحسانًا) واعتبروا الياء التي في "الوالدين" من صلة الإحسان مقدمة عليه، بينما ذهب آخرون أن "الباء" التي في لفظة "الوالدين" من صلة المحذوف "أحسنوا" ومعناه (أن لا تعبدوا إلا الله، وأحسنوا بالوالدين إحسانًا [44].

وبعدما عرض الإمام لمواقف أهل العربية ناقدا ومعلقا، عاد ليؤكد رأيه في المسألة إذ يقول: (ولكن القول فيه ما قلنا، وهو: وإن أخذنا ميثاق بني إسرائيل بكذا، وبالوالدين إحسانًا ـعلى ما بينَّا قبلـ فيكون الإحسان حينئذٍ مصدرًا من الكلام لا من لفظة، كما بينا فيما مضى من نظائره)[45] .

وقد أيّد رأي الإمام الطبري محي الدين الدرويش في جعل الواو حرف عطف إذْ يقول: ("بالوالدين" الواو حرف عطف على موضع "إنْ" المحذوفة في لا تعبدون إلاّ الله، فكان معنى الكلام: وإذْ أخذنا ميثاق بني إسرائيل بأن لا تعبدوا إلاّ الله، وأحسنوا بالوالدين)[46].

فقد جعل محي الدين (إحسانًا) مفعولا مطلقا لفعل محذوف مثلما فعل الإمام الطبري، وهنا يظهر وجه الاتفاق بينهما.

غير أن ابن عطية خالفه في ذلك وركّز على مسألة التقديم والتأخير في الآية الكريمة، يقول (وقدّم اللفظ "بالوالدين" نحو قوله " إياك نعبد")[47] .

ثالثا، دلالة وضع حرف في موضع حرف آخر: من نماذج هذا الأسلوب في الخطاب القرآني قوله تعالى:{ ثُمَّ قَسَت قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِك فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَو أَشَدّ قَسْوَةً وَإِنَّ منَ الحِجَارَة لَمَا يَتَفَجَّر مِنْهُ الأَنْهَار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَقّق فَيَخْرُجُ مِنْهُ المَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لما يَهْبِط مِنْ خِشْيَةِ الله وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُوْنَ}(البقرة، 74).

يفسّر الإمام الطبري هذه الآية الكريمة بقوله إنّ الله سبحانه خاطب كفار بني إسرائيل ووصف قلوبهم بالحجارة، إلا إنّها صلبة ويابسة وبعضها أشدّ صلابة، لأنّ من الحجارة ما يتفجر بالأنهار... فهو ألين من قلوب الذين كذبوا وعارضوا آياته سبحانه وتعالى، إلا أن الله تعالى ليس بغافل عن أفعالهم وأعمالهم، بلّ هو حافظ لها، وسينالون عقابهم[48].

أما المسألة النحوية التي أثارت انتباه الإمام فهي دلالة (أو) من قوله تعالى: { فَهِيَ كَالحِجَارَةِ أَو أَشَدّ قَسْوَةً}، التي كثرت الآراء حولها، منها ذكره لقول أحدهم: انّ من يظنه شكًّا من الله تعالى فهو يتوهم، لأن في ذلك خبرًا من الله عزّ وجل يبيّن فيه مدى قساوة قلوبهم[49].

وقول آخر: ما أشبه ذلك من الأخبار التي تأتي بِ "أو" كقوله:{ وَأَرسَلنَاهُ إلى مِئة أَلفٍ أَو يَزِيدُونَ} (الصّافات: 147) وكقول الله جل ذكره:{ إنَّا أَو إيَّاكُم لَعَلَى هُدًى أَوفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } (سبأ: 25)[50] .

أمّا بعضهم فذهب إلى أن معنى هذه الآية أن قلوبهم إما أن تكون مثلا للحجارة في قسوتها، وإما أن تكون أشدّ قسوة، أي لا تخرج من أحد هذين المثالين[51] ، وأما آخرون منهم فرأوا أن "أو" في الآية الكريمة جاءت بمعنى " الواو" بمعنى "وأشدّ قسوة " (كما قال تبارك وتعالى:{ وَلَا تُطِع مِنْهُم أَثِمًا أَو كَفُورًا } (الانسان: 24) بمعنى: وكفورا)[52]، ولما عرض الإمام الطبري جملة من آراء المفكرين، أبدى إعجابه بالقول الذي ذهب إلى أن "أو" وردت في هذه الآية الكريمة للتوكيد ووصف شدّة القسوة، وليس للشك في كلامه تعالى، إنما من باب إبهام على المخاطب. وقد أيّد الزمخشري الإمام ابن جرير في ما ذكره من معنى"أو"، فهو يرى أن الله سبحانه وتعالى عارف بحالة قلوبهم وشبهها بالحجارة أو بشيء أسى منها وهو الحديد، فوصف القسوة بالشدّة وقال في ذلك: (أومن عرفها شبهها بالحجارة، أو قال: هي أقسى من الحجارة، فإن قلت: لم قيل: أشدّ قسوة، وفعل القسوة مما يخرج منه أفعل التفضيل وفعل التعجب؟ قلت:

مجلة المفكر
EISSN 2661-7498
ISSN :2543-3830
المجلد 5 / العـدد 2 (2021)، ص 101– 116

لكونه أبين وأدّل على فرط القسوة، ووجه آخر وهو أن لا يقصد معنى قسوة، ولكن قصد وصف القسوة بالشدّة، كأنه قيل: اشتدت قسوة الحجارة، وقلوبهم أشدّ قسوة [53].

كما أيّد ابن عاشور أيضا الإمام الطبري في ما ذهب إليه، ورأى في ذلك أن المقصود بكلامه ليس شكًا وإنّما توكيدٌ وأن الكلام مثبت، يقول: (وجه تفضيل تلك القلوب على الحجارة في القسوة أن القسوة التي اتّصفت بها القلوب مع كونها نوعًا مغايرًا لنوع قساوة الحجارة قد اشتركت في جنس القساوة الراجعة إلى معنى عدم قبول التحوّل كما تقدّم في هذه القلوب قساوتها عند التمحيص أشدّ من قساوة الحجارة، لأن الحجارة قد يعتريها التحوّل عن صلابتها وشدتها بالتفرق والتشقّق)[54].

رابعا، دلالة إعمال الحرف وإهماله: منه قوله تعالى:{ أَو كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُ فَرِيْقٌ مِنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} (البقرة، 100) . تفسير هذه الآية حسب مختصر الإمام الطبري هو: أو كلما عهد اليهود ربهم عهدًا مؤكدين فيه العمل بالتوراة، والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، جاء فريق منهم رفضه ونقضه، بل وأثرهم لا يؤمنون بالله ورسوله، فكيف يوفون بالعهد؟[55].

لقد اختلف أهل العربية في حكم "الواو" التي جاءت في قوله جل ثناؤه { أَو كُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا}، فيرى بعض نحويي البصرة أن الواو تُجعل مع حروف الاستفهام، مثل الفاء كما في قوله تعالى: { أَفَكُلَمَا جَاءَكُمْ رَسُوْلٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُم}(البقرة،87). وكلتاهما زائدتان في هذا الوجه[56]، أمّا أهل الكوفة فجعلوا " الواو" حرف عطف أُدخل عليها الاستفهام[57].

أما الإمام الطبري فقد نقد الرأي الأول في قوله: (... غير جائز أن يكون في كتاب الله حرف لا معنى له فأغنى ذلك عن إعادة البيان على فساد قول من زعم أن " الواو" و" الفاء " من قوله: { أَوَكُلَّمَا} و{ أفَكُلَمَا} زائدتان لا معنى لهما)[58] ، ثم أخذ بالرأي الثاني الذي أقره الكوفيون قائلًا (والصواب في ذلك عندي من القول أنها واو عطف، أُدخلت عليها " ألف " الاستفهام)[59].

ومن المفسرين الذين أيّدوا الإمام الطبري في اعتباره الواو حرف عطف ابن عاشور، ويتجلى هذا في قوله:(... وقدمت الهمزة محافظةً على صدارتها كما هوشأنها مع حروف العطف)[60] ، وغير بعيد عن هذا الرأي كان موقف الإمام الزمخشري في تفسيره إذْ يقول: ("أوَ كلما" الواو للعطف على محذوف معناه: أكفروا بالآيات البينات، وكلما عاهدوا)[61].

ومما سبق من الآراء، يتبين أن "الواو" في قوله عز وجل: { أَوَ كُلَّمَا} حرف عطف، وليس حرفًا زائدًا لأنه لا وجود لحروف زائدا في كلام الله تعالى.

خاتمة: كانت هذه نماذج من قضايا الحرف التي عرض لها الإمام الطبري في تفسيره، وقد مكنتها هذه القراءة السريعة في التفسير أن نخرج بجملة من النتائج لعل أهمها ما يلي:

1/ أن الإمام الطبري كان له منهج خاص بشأن عرض القضايا، يتمثل في ذكر آراء غيره ونقدها ليرجح بعضها على غيره، أو ليعرض رأيه الخاص، كما كان له بشأن الحروف في النص القرآني جملة من القواعد منها التالية:

أ/ أنّه من الجائز أن يكون أكثر من معنى للحرف الواحد.

ب/ أنّه غير جائز إبطال حرف كان دليلا على معنى من الكلام.

ت/ أنّه غير جائز أن يرد حرف في كتاب الله تعالى لا معنى له..

ث/ أنّه لا يجوز حذف حرف من كلام الله.

ولا شكّ في أن هذه الميزة النحوية التي في تفسير جامع البيان تعتبر من الدلائل التي تميّز الإمام الطبري، في موضوع اللغة التي يستخدمها في تفسيره.

6. قائمة المراجع:

1/ إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع، 1998.

2/ ابن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق محمود محمد شاكر، ط2 دت، مكتبة ابن تيمية، القاهرة.

3/ ابن خويلي ميدني، واقع النحو التعليمي العربي بين الحاجة التربوية والتعقيد المزمن، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2009.

4/ أحمد شامية، خصائص العربية والإعجاز القرآني، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995.

5/ حسن مسعود الطوير، المنهج البلاغي لتفسير القرآن، دار الملتقى للنشر والتوزيع 1998.

6/ حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1968.

7/ رمضان يخلف، مناهج المفسرين من النشأة إلى ما قبل العصر الحديث، مخطوط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2013 . 2014.

8/ زياد علي الجرجاوي، عبد الفتاح عبد الغني الهمص، التفسير بين الأصالة والمعاصرة، مخطوط، كلية القرآن والدراسات القرآنية، جامعة القدس، 2014.

9/ ستار عايد العتابي، النحو العربي وقضية التجديد في التيسير فيه، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، لندن، أيار، 2007.

10/ الزمخشري، الكشاف، ط1، دار المعرفة، بيروت ،.2002

11/ الشعراوي ، تفسير الشعراوي، دط، دار أخبار اليوم، مصر، 1991م.

12/ عزت السيد أحمد، حدود التأويل، مجلة جامعة دمشق، المجلد28، العدد الأول، .2012

13/ عماد أحمد سليمان زيد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، تشرين الثاني .2006

14/ العيد جلولي، عبد القادر خليف، القراءة والتأويل من منظور اصطلاحي، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، العدد 28 2017.

15/ محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر .1985

16/ محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، دار ابن كثير، ط3 .2009

17/ مساعد بن سليمان ناصر الطيار، مفهوم التفسير والتأويل والارتباط والتدبر والمفسر، دار ابن الجوزي ط2، 1467هـ.

7. الهوامش:

1 – ينظر إبراهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، ص 558.

2 – المرجع نفسه، ص 558

3 – زياد علي الجرجاوي، عبد الفتاح عبد الغني الهمص، التفسير بين الأصالة والمعاصرة، مخطوط، كلية القرآن والدراسات القرآنية، جامعة القدس،2014، ص 4.

4 – رمضان يخلف، مناهج المفسرين من النشأة إلى ما قبل العصر الحديث، مخطوط، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، الجزائر، 2013 . 2014 ، ص 9 .

5 – المرجع نفسه، ص 67 .

6 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

7 – ينظر، المرجع نفسه ص 15.

8 – ينظر، مساعد بن سليمان ناصر الطيار، مفهوم التفسير والتأويل والارتباط والتدبر والمفسر، ص 19.

9 – ينظر عماد أحمد سليمان زيد، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، الجامعة الأردنية، كلية الدراسات العليا، تشرين الثاني 2006، ص 11.

10 – ينظر المرجع نفسه ص 11

11 – المرجع نفسه ص 29.

12 – المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

13 – ينظر: إبراهيم عبد الله رفيده، النحو وكتب التفسير، ص 341.

14 – العيد جلولي، عبد القادر خليف، القراءة والتأويل من منظور اصطلاحي، ص 76.

15 – عزت السيد أحمد، حدود التأويل، مجلة جامعة دمشق، المجلد28، العدد الأول، 2012، ص 522.

16 – ابرهيم عبد الله رفيدة، النحو وكتب التفسير، ص 539.

17 – ينظر: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

18 – ستار عايد العتابي، النحو العربي وقضية التجديد في التيسير فيه، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية، لندن، أيار، 2007، ص 17.

19 – محمد دباغ، القواعد النحوية وأثرها في الفروع الفقهية، ص 12.

20 – ابن خويلي المدني، واقع النحو التعليمي العربي بين الحاجة التربوية والتعقيد المزمن، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2009، ص 5.

21 – المرجع نفسه

22 – أحمد شامية، خصائص العربية والإعجاز القرآني، د ط، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995، ص 133.
23 – المرجع نفسه، ص 14.
24 – ينظر، المرجع نفسه، ص 15.
25 – المرجع نفسه، ص 18.
26 – ينظر، حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، ط1، دار الشروق، القاهرة، 1968، ص 40.
27 – ينظر، المرجع نفسه، الصفحة نفسها. الطبري، مختصر التفسير 1983
28 – ابن جرير الطبري، مختصر التفسير، ص258.
29 – ا ينظر: ابن جرير الطبري، التفسير، المجلد 12، ص326.
30 – ينظر: المصدر نفسه، ص327.
31 – المرجع المصدر، ص327.
32 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها
33 – الشعراوي ، تفسير الشعراوي، دط، دار أخبار اليوم، مصر، 1991م، ص 4063.
34 – ينظر: الإمام الطبري، التفسير، المجلد6، ص483.
35 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج25، ص46.
36 – ينظر : الإمام الطبري، التفسير، المجلد 12، ص65.
37 – المصدر نفسه، ص66.
38 – ينظر، المصدر نفسه، ص 66.
39 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
40 – محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج8، ص30.
41 – ينظر: الطبري، مختصر التفسير 1983، ص292.
42 – ينظر: ابن جرير الطبري، التفسير، المجلد 2، ص290.
43 – ينظر: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
44 – المصدر نفسه، ص292.
45 – المصدر نفسه
46– محي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، المجلد 1، ص123.
47 – حسن مسعود الطوير، المنهج البلاغي لتفسير القرآن، ص80.

48 – ابن جرير الطبري، التفسير، ج 8 ، ص209.
49 – المصدر نفسه، ص210,
50– المصدر نفسه، 212.
51 – ينظر، الزمخشري، الكشاف، ط1، دار المعرفة ،بيروت ،2002،ص232.
52 – ينظر: الإمام الطبري، مختصر التفسير، ص 29–30.
53 – الزمخشري، الكشاف، ج 1، ص 286. ينظر: الإمام الطبري، التفسير، المجلد 2، ص 235.
54 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1، ص 564.
55 – ينظر، المصدر نفسه، ص 236.
56 – ينظر: الإمام الطبري، مختصر التفسير، ص36.
57 – المصدر نفسه، ص 400.
58 – المصدر نفسه، الصفحة نفسها.
59 – المصدر نفسه
60 – ابن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء 1، ص625.
61 – الزمخشري، الكشاف، ص86.